

المقاومة الشعبية وظهور الزعامات

لقد مرت المقاومة الشعبية بمرحلتين مؤكدة في ذلك إيمانها أن هؤلاء الغزاة لم يكن ليقدّموا مصلحة للبلاد والعباد بل جاؤوا للعدوان ونشر الكفر والفساد. وكانت المحاولات الأولى لرد العدوان ودحض الاستعمار الفرنسي كما يلي:

المقاومة الشعبية الأولى:

لما سقطت العاصمة في يد العدو، تشكلت قوات ريفية عفوية وأخذت موقعها حول العاصمة، مصممة على أن لا تترك العدو يخرج من المدينة نحو اليااسة في حصار مميت داخل المدينة. وهكذا نظمت المقاومة الريفية التلقائية محاصرة العدو من كل الجهات إلا من جهة البحر. فأخذ الجوع ينهشه وارتفعت أسعار المواد الغذائية إلى درجة مخيفة، وراح أعيان المدينة يهربون منها إلى مزارعهم بالريف، نفذ زاد الفرنسيين ولكن خضر وألبان ولحوم متبجعة لم تدخل المدينة واشتاقوا قطعة اللحم فلم يجدوها إلا في القطط الهائمة من حولهم وأخذ المرض واليأس يقضيان مضاجعهم.

المقاومة الشعبية الثانية:

لم يبق الاستعمار مكتوفي الأيدي لذا عمل علي توسيع نطاق عملياته العسكرية محاولا في ذلك بسط سلطانه على كامل التراب الجزائريين بدءا بمدن الساحل ثم المناطق الداخلية، بالمقابل كان الجزائريون آخذين الأمر علي محمل الجد من خلال شيوخهم وزعماء قبائلهم في التصدي لهذا الزحف الصليبي العاشم مشكلين في ذلك مجموعات لمقاومة هذا الخطر ومن أولئك الشيوخ و الزعماء نذكر منهم كلا من: الحاج محمد بن زعموم، الحسين بن زعموم، الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر... وغيرهم.

مقاومة الحاج محمد بن زعموم

كان الحاج محمد بن زعموم من هؤلاء القادة، و برز اسمه منذ 1830 وكان قائدا على قبيلة فليسة تسمى أيضا فليسة (أم الليل) وغيرها وكان طاعنا في السن (حوالي 70 سنة) عندما غزا الفرنسيون الجزائر، وكان له ابنان، الحسين وحمدان، لعبا أيضا دورا في الأحداث التي نذكرها. وكان يمتاز بالأنانة واستشارة غيره فيما يزعم عليه.

ويبدو أنه كانت له يد طولي على غيره من قواد الأوطان الأخرى، ومن ثمة سوء التفاهم مع بعضهم أحيانا في حالة السلم أمثال بلقاسم أوقاسي قائد سيباو. كما أننا لا ندرى ولاء أو تبعية الحاج ابن زعموم لبايات التيطري، خصوصا بعد سقوط العاصمة ومناداة الباي مصطفى بومزراق بالحرب ضد الفرنسيين. وعلى كل حال فقد كن موقف ابن زعموم في أول الأمر واضحا، وهو بقاء الفرنسيين في المدينة وترك أهل الريف في أوطانهم دون تدخل في شؤونهم. ويلتزم الطرفان بذلك في معاهدة رسمية قبل فك الحصار، ولكن الفرنسيين استكثروا هذا واعتمدوا على قواتهم في فك الحصار بدل المعاهدة أو الاتفاق عملت قيادات الريف بخروج بورمون نحو البليدة. فاجتمعوا في مؤتمر واحد في البرج البحري يوم 23 يوليو 1830 وهو نفس اليوم الذي خرج فيه بورمون (وهو الاجتماع الذي حضره قادة الأوطان والقبائل العديدة في المنطقة)، وبعد إلقاء الكلمات وإبداء الآراء تقرر إعلان الحرب على العدو وعدم تركه يخترق أرضهم ويهين كرامة وطنهم، وكان الحاج ابن زعموم حاضرا للاجتماع، ونتج عن ذلك الاجتماع أيضا ارتفاع الروح المعنوية وعودة الأمل بالتحريير حتى وصلت الأخبار بذلك إلى العاصمة المحتلة، ففرح الفرنسيون وسادهم الذعر، أما الجزائريون فغمرهم الأمل والترقب. وتنفيذا

لمقررات الاجتماع المذكور هاجمت القوات الريفية جيش (دو بورمون De Bourmont) أثناء عودته الفاشلة من البليدة واستمرت في مقاتلتها إلى أن جن الليل وحتى مشارف العاصمة، وكان ذلك درسا للفرنسيين الذين لم يعاودوا الخروج من العاصمة إلا في عهد كلوزيل

مقاومة الحسين بن زعموم:

حاول (كلوزيل Clauzel) القيام بشبه حملة على البليدة والمدية، خلال نوفمبر 1830، ولكن عاقبتها كانت وخيمة، حيث كانت القوات الشعبية حوالي سبعة آلاف محارب من جميع الأوطان) فليسة، الخنشة، بني موسى، بني مسرة، بني خليل... إلخ)، تحت قيادة الحسين بن زعموم وكانت مدفوعة بروح الجهاد التي بثها فيها الحاج السعدي، فهاجمت قرب بوفاريك الخمسين مدفعا الذين أرسلهم (كلوزيل) لجلب الذخيرة من العاصمة وقضت عليهم، ثم هاجم الثوار حامية البليدة الفرنسية. وتكررت المعارك بين القوات الشعبية والفرنسيين بين العاصمة وجبال الأطلس. وتوحدت جهود القيادات الواقعة في الجبهة الشرقية من متيجة على الخصوص، وقطعوا الطريق على الامدادات الفرنسية للحامية التي تركوها في المدية مع الباي الجديد مصطفى بن الحاج عمر .

وعادت البليدة إلى أحضان المقاومين، وتمت محاصرة خليفة كلوزيل (بيرتزان Berthèzene) وجنده من جديد داخل أسوار العاصمة، إذ ضيقت عليه المقاومة الخناق عندما هاجمت المشروع الزراعي حتى قتلت المزارعين هم جنود وجعلت الباقين منهم يفرون كالأرانب من المزرعة النموذجية (فيرم موديل Ferme modèle) التي أنشأها كلوزيل بالقرب من وادي الحراش لتجربة الاستعمار، وانتشر الرعب والأمل من جديد في العاصمة، ودعم ذلك قوات إضافية جاء بها أحمد بن مصطفى بومزراق الذي قام يدافع عن حقه في تركة والده، الباي السابق للتيطري. وقد نزل بها قرب بوفاريك، ثم تقدم بها نحو الفحص (ضواحي العاصمة).

وفي منتصف يوليو 1831 عبرت القوات الشعبية بقيادة ابن زعموم (الإبن) وادي الحراش وهاجمت المزرعة النموذجية من جديد وأحرقت المحصول الذي طالما حلم كلوزيل بجنيه وأكله فإذا هو هباء تذروه الرياح، وهددت الحاميات الأمامية التي كان الفرنسيين قد نصبوها دفاعا عن المدينة المحتلة. وقد خرج إليهم بيرتزين بنفسه على أرس قوة من ثلاثة آلاف جندي. فت ارجعوا قليلا، لكن في اليوم الموالي هاجمت الفرق المتجمعة في بوفاريك والتي كان يدعمها الحاج السعدي، هاجمت المزرعة النموذجية من جديد، إلى أن خرج بيرتزين لمحاربتها مرة أخرى.

وأمام هذا الوضع الذي أصبح لا يطاق (لبرتيزان)، استجاب للرأي الذي يقول " :ابقوا حيث انتم ونبقى حيث نحن" ، والا فالحرب بيننا لن تنقطع، إلى أن تعودوا من حيث جنتم.

قبل الجنرال الفرنسي بذلك المبدأ وجرت مفاوضات بينه وبين أعيان المدينة فنصحوه بأن الشخص الذي يقدر على أن يكون وسيطا بين أهل الريف المجاور وقوات الاحتلال هو الحاج محي الدين بن مبارك، الذي كان يتمتع لدى أهل الريف بسمعة مؤثرة ويتقون فيه لمكانته الدينية إذ هو من صنف المرابطين وشيخ زاوية عريقة في القليعة، وقد قبل الشيخ محي الدين بهذه الوظيفة التي رأى فيها حفظا لمصالح قومه وإبعاد العدو عن الداخل، وكان ذلك في شهر يوليو 1831 ، وتلقب بلقب (آغا

العرب)، الذي كان في عهد العثماني تخضع إليه القيادات الريفية كما عرفنا. وبذلك توقفت الحرب إلى حين وطالما بقي (بيرتزان)، الذي يتهمه قومه بالضعف والخوف لقبوله بذلك الاتفاق، حيث بقي سهل متيجة في عافية حذرة، وكان على الفرنسيين أن لا يغادروا العاصمة، لأن أسواقها وتجارها من الداخل مضمونة، والأمن العام محفوظ، ولكن مجيء (دو روفيغو DE Rovigo) بخططه البوليسية وغطرسته قلب الأوضاع مما جعل المقاومة الريفية تعود إلى الدفاع عن المبادئ التي قررتها في اجتماع البرج البحري، وهو قطع طرق الداخل أمام العدو ومحاصرته في المدينة وتجويعه إلى أن يعود

إلى بلاده أو يموت حتف ظلّفه، وكان الشيخ محي الدين (آغا العرب) من أول الضحايا لهذا العهد، فقد كان (روفغيو) يريد عميلا يشي بقومه ويسهل مهمة الجيش الغازي لعبور سهل متيجة إلى البليلة والمدية وما وراءها، لكن الشيخ أبي الا ان يتمسك بالاتفاق السابق، ودافع عن ذلك ، على أساس أن فيه مصلحة الطرفين، وعندها اتهمه (روفغيو) بالتواطؤ مع القوات الشعبية التي عاودت اعتراض طريق جيش العدو الذي كان يحاول فك الحصار.

مقاومة الحاج علي السعدي ومحمد بن زعموم والحاج محي الدين:

الحاج علي السعدي هو حفيد سيدي السعدي دفين مدينة الجزائر سنة 1710 ، وكانت زاويتهم في جهة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي اليوم ، وهي الزاوية التي هدمها الفرنسيون وكانت للحاج السعدي علاقات برجال الدين في الجزائر، مثل سيدي علي بن موسى، مرابط المعاتقة، الذي كان يكن له احتراما كبيرا، وقام الحاج السعدي بأداء فريضة الحج سنة 1827 ، وعرف عن الحصار الفرنسي للجزائر، وهو في الطريق، فبقي في الإسكندرية برهة من الوقت واغتتم الفرصة فتجول في المشرق الإسلامي حوالي سنتين، وخرج على ليفورنيا (إيطاليا) والتقى فيها بالداي حسين باشا قبل أن يعود إلى الجزائر عن طريق البحر. .. ومنذ رجوعه إلى الجزائر تزعم الحاج السعدي جبهة المقاومة، فقد وجد أعيان الجزائر قد ركنوا إلى الصلح منتظرين احترام الموائيق وجلاء الفرنسيين بعد أن يسلموا إليهم مفاتيح البلاد من أيدي الترك، فأخذ الحاج السعدي أولا يتصل بكل من له استعداد للمقاومة، وحرصهم على جمع الشمل، ثم خرج إلى الريف فوجد الاستعدادات أكثر، والطاعة أقرب، إذ هو من رجال الدين وهم يثقون في هؤلاء، خصوصا وقد كان رجلا متعلما ويمتاز بالذكاء الحاد وحب الجهاد، وكانت له سمعة كبيرة في الورع والتقوى، وقد زده الحج صيتا وسمعة... اشترى الحاج السعدي حصانا وأخذ يطوف به سهل متيجة ويتصل بأصدقائه رجال الزوايا وأهل النواحي الشرقية (الرغاية، بودواو، سباو، يسر) بالإضافة إلى بني خلفون والمعاتقة وفليسة، واجتمع شخصيا بزعم هذه القبيلة، الحاج محمد بن زعموم المشار إليه، وتواعدا على الجهاد وتنسيق الجهود، وذلك في العاشر من يوليو 1831 وبفضل هذا التنسيق تمكن المجاهدون المنطلقون من سيدي الرزين عن يمين وادي الحراش من الهجوم المذكور على النموذجية وطرد وقتل معمرها وإحراق محصولها في نفس الشهر، وتهديد العاصمة، وبفضل ذلك التنسيق انطلقت الموجة الثانية من الهجوم من بوفاريك في النصف الثاني من شهر المذكور. فالحاج السعدي إذن كان عندئذ هو الضمير المحرك خلال هذه الهجومات، وكان أيضا وراء الهجومات الناجحة على فرقة بورمون التي تجرأت على التوجه إلى البليلة) جويلية 1830 وحملة (كلوزيل) نوفمبر 1830 على المدية والبليلة التي انتهت بالفشل الذريع وبعد مذبحه العوفية أبريل 1832 إستتف القتال ضد العدو، فكان الحاج السعدي على أرس المجاهدين روحيا والحاج محمد بن زعموم قتاليا) بواسطة ابنه الحسين، كما ذكرنا، لكبره ومرضه. وكان الاثنان على صلة وطيدة مع الحاج محي الدين آغا العرب...

وهكذا استطاع الحاج السعدي بالخصوص أن يجلب الحاج محي الدين إلى صف المجاهدين وأن يجعله يرمي بأوسمة الفرنسيين وقطانهم ويتقلد سيف الجهاد ضدهم، وأول معركة خاضها المجاهدون هي معركة زاوية محمد التوري قرب العوفية وهي المعركة التي قتل فيها 57 جنديا مرتزقا من اللفييف الأجنبي ولم ينج من الفرقة كلها سوى ألماني اعتنق الإسلام وسماه الناس أحمد المشهد. وعندما أراد الفرنسيين الانتقام أرسلوا قطعة بحرية نحو (يسر) ولكنهم عادوا منهزمين بعد أن أمطرهم الأهالي هناك بالرصاص. ثم كان اجتماع القيادة الجديد في شهر سبتمبر 1832 وهو الاجتماع

التاريخي الذي وقع في (سوق علي) بالقرب من بوفاريك، الذي أدى إلى جمع الكلمة وتكوين قوة كبيرة من المجاهدين انطلقت ضد العدو وبقيادة ابن زعموم أيضا، وخرجت القوات الفرنسية لتفريق هذا التجمع الوطني، ولكن المجاهدين نصبوا لها كميناً في المكان المسمى (المرابط سيدي عيد) حيث فاجئوها وقتلوا منها وأصابها الذعر والخوف والفوضى لولا نجدة أعادت إليها أنفسها، وذلك يوم الثاني من أكتوبر 1832 وفي اليوم التالي عاود المجاهدون الكرة على العدو وأجبروه على التقهقر، ودخول العاصمة والانحسار فيها، وكانت الهزائم العسكرية هي السبب في جعل روفيغو يتوقف عن حملات القتال ويلجأ إلى حملات الإرهاب في المدينة حيث وجه انتقامه ضد أعيانها .

مقاومة الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر:

عمت الفوضى كامل الساحل الجزائري محاولة في ذلك فرنسا أن تحكم قبضتها بدءاً بالمدن الساحلية إلى المناطق الهضابية الأخرى، ففي شهر أفريل عقد اجتماع في ضواحي معسكر حضره زعماء قبائل بني هاشم، بني عامر والبرجية تقرر بموجبه إسناد القيادة إلى محي الدين لمحاربة الفرنسيين وإخراجهم من مدن البايك الغربى فأخذ الشيخ بالتعبئة بين الجزائر ووهران ليصل عدد المجاهدين إلى حوالي 3 آلاف مجاهد. يتبع